"اعلم أن الله تعالى لما خلق آدم عليه السلام، الذي هو أول جسم إنساني تكون، وجعله أصلاً لوجود الأجسام الإنسانية، وفضلت من خميرة طينته فضلة، خلق منها النخلة، فهي أخت لآدم عليه السلام، وهي لنا عمّة، وسماها الشرع عمة، وشبهها بالمؤمن، ولها أسرار عجيبة دون أسرار النبات".

أرض الحقيقة – الفتوحات المكية
محيي الدين بن عربي

وأخيراً أعود إليك يا مبروكة بعد غياب طويل. غياب قسري. ملعون أبو الغياب وأبو الفراق. ما أمرّها! الشوق يقتلني.. وعلى كتفيّ محنة أيوب. صبرت حتى عجز الصبر. اغتالوني وأنا أصب قهوة الصبح في الفنجان. قتلوني مرات عديدة. نهضت من بين جثث الموتى كما قام المسيح.

هي خطوات وسألقي جسدي المتعب على صدرك مثل محارب عائد من الوغى ليرتمي بين ذراعي أمه. ذراعي زوجه!

قبلاَ سأقبلك، لم يعرف الحب مثيلاً لها! سوف تلسع جسدك حرارة أنفاسي المتقدة. نار مشتعلة منذ عقود. حرقت جسدي وأضوته.

هل تحتاجين إلى لحظات أو دقائق لتتعرفي عليه؟ علي؟ على ما تبقى مني؟!

كانت الحرب سجالا. كرّ وفرّ.

ذقت حلاوة النصر أكثر من مرة وطعمت حنظل الهزائم مرات. وعلى الجسد يا مبروكة ندب لا تحصى قد التأمت. وفي الروح ندوب عميقة ما زال ينكأها الزمان صباح مساء!

هل ستتعرفين على شعري الأسود الطويل الذي كانت أمي تتمتع في تسريحه في أثناء زرقة الشمس؟

تركت أصابع الزمان على خصلاته بصمات!

هنا مر الإبهام. هنا رجّلته السبابة والإصبع الوسطى! وهنا حكّ الخنصر والبنصر جلدة الرأس!

كان الزمان يسير ..
وكنت أعدو ..

ما قعدت يوما وما عرفت القعود!

مستنشقا هواء الفجر المضمخ بعبير البرتقال ساعة .. ومنتشيا ببرودة نسيم البحر المنعش الذي مسحت وجهه الأسمر وعنقه المتجعد مشى!!

يقولون إن أيوب وصل إلى شاطئ البحر متحاملاً على جسده الواهي الناحل المقروح وألقى جسمه فيه وغاص لحظات فخرج سليما معافى.. جسدا شابا قويا يتنشف بالنور!

كان يحاول أن يستنشق الهواء بشراهة لذيذة كأنه غير مصدق أن هذا الهواء له. هذا الهواء كله له.

يعرف.. وما أدراك ما المعرفة؟!

يعرف رائحة النسيم الذي تلبى عليه، يعي شذى الأرض!

الهواء فوق تراب "البياضة" بارد ومنعش في الصيف. ونسيم الصباح في "رباع الست" يذكر الفتى بعطر امرأة شابة تمر بجواره. يتضوع في الجو ويملأ الخياشيم ويحرك الشهوات النائمة. وأما هواء "المراح" فيحمل رائحة الأنعام .. الأبقار والماعز والأغنام.

ويغذّ الخطى.

محمولا على بساط من الشوق أعود إليك يا مبروكة. مرفوع الصدر. ذراعاي مثل جناحي نسر.

أسمعك. يا هلا. يا هلا! ويسير.

نابشاً بليونة الفجر ذاكرته الغنية ليفتح خوخة للذكريات النائمة في أعماقها.

يتذكر أسماء مواقع الأرض، أسماء التلال والدروب والشعاب والسبل. سائلا عن رائحة الهواء في هذه الهضبة في سويعات الصباح وعن نعومة النسيم فوق ذاك المنحنى.

قلب العاشق دليله.

من هنا!

يلفظها في سره مكوية بالزفير.

على هذا المنحنى كنا نعدو مثل الحملان ونطير مثل الفراشات الملونة. نتسابق وراء عصفور بنّي الذنب. نتخاصم على وردة برية شذّت بلونها الليلكي عن أترابها الحمراوات. نعدو من زهرة إلى زهرة وراء طزيز.. من شجيرة قندول تفتحت أزهارها الذهبية وتمايست مع شعاع الشمس تراقص النسيم وقد لف ذراعه حول خاصرتها إلى شجيرة بطم ضحكت أوراقها للنهار وفاح عطرها في الفضاء. نتعثر بعود يابس استراح على الأرض ملتاعا على الحياة.. بحجر خضّبه التراب ولفّعه العشب الطري. ننهض ضاحكين. تسخر منا الفراشات. يصفق الطزيز.

يــركض خطــوات. تتقــافز الحشــرات والهــوام والطيــور مــذعورة. تصــف لــه أوراق العشب. يلهث. يتعب. يقف.

لقد كبرت يا يوسف العلي وكبر الزمان معك، ورسم على وجهك خطا بل خطين، وبنى سخام التبغ في صدرك مداميك سوداء مثل الغربة. ستون عاما يربضــون علــى كتفيــك بمــا يحملون من الغربة والذل، من الجــوع والحرمــان.. مــن المطاردة والرحيل.. من التحدي والإحباط. من الكفر والإيمان. من الفشل والنجاح.. من الخطأ والصواب!!

ما ضل صاحبك وما هوى!

يحفظ سفر الخروج عن ظهر قلب. رواه يوسف العلي للرفاق على سفوح جبل الشيخ. في الكهوف. في ليالي الشتاء القارس. يحكي عن آدم وحواء. عن قابيل وهابيل. القاتل والقتيل. الفردوس المفقود.

كان يروي السفر واقفا.

وكان يحكي مستلقيا على ظهره والبندقية بجواره.

وكان ينام وهو يقول.. ويقول..

يقولون له : كفى يا يوسف العلي! ألا تمل ّ! ألا تضجر! إن كثرة الاستعمال للكلمة تقلل قيمتها وتفقدها جمالها!

ويرد قائلا: يقرأ المسلم سورة الفاتحة ثماني وعشرين مرة في اليوم فهل فقدت السورة بلاغتها وجمالها؟!

يرتشف شايه الساخن مع رفاقه في الفجر وهو يحدثهم عن حلم قصير رآه في المنام.

حينما أسندت ظهري إلى مبروكة وأغمضت عيني في غفوة لذيذة سمعت وحيا يقول: وهزي إليك بجذع النخلة يتساقط عليك رطبا جنيا.

لماذا تضحكون؟

ليست معجزة!

مبروكة تعرفني. تحبني. تنتظرني.

أنا يوسف العلي ذو الشعر الأسود الطويل والقميص المزركش. كنت أرقص حولك مع أخوتي السبعة.

نقفز ونغني، ونرتمي عليك.

"مبروكة يا مبروكة

يا عين أمك وأبوك!!"

تضحكون؟

لا يهمني، قولوا ما شئتم! أنا.. أجل يوسف مبروكة! وهل في هذا عار. لا عار إلا العار. والعار هو أن أنساها. ألا أحلم بها! ألا أتغنى بها..

قادما من ليل الغربة الدامس ممتطيا جوادا أصيلا من الشوق. في الصدر عشق. وفي الذاكرة حكايا.

كان أبي يسبّح في لحظات الوجد ويقول إن الله خلق النخيل في الجنة وفي دار الإسلام. ولم يختر فاكهة سوى التمر لتتغذا بها ستنا مريم حينما وضعت سيدنا عيسى عليه السلام. كانت شاهدة الميلاد ولباه وحلييه!! والنخل ذات الأكمام. يا يوسف العلي. ليست كل ولادة ولادة. وليست كل قابلة قابلة. كانت النخلة قابلة مريم ومن رطبها تلبى وليدها!

"مبروكة يا مبروكة.
يا عين أمك وأبوك
بالدم زرعناك
وبالدمع سقيناك
واجا الغربا سرقوك."

لو كنت معي يا أبي الآن!

لو تكحلت عيناك بنور الأرض الخضراء. بزهر القندول. بشقائق النعمان. بورق الشجر الطالع مبتسما من البراعم.

لو مشيت على سجادة خضراء نسجها مبدع قدير وزركشها بالأقحوان والنرجس والبرقوق وعصا الراعي، ولفّة سيدي وابرة ستّي وعين البقرة وعرف الديك.. تهمس لك: يا هلا يا علي.

ولكنك رحت.. متّ.

ضيعني أبي صغيرا وحملني الهمّ صغيرا!

أسمعها. أسمعها تناديني. صوتها الرخيم يقول لي: تعال. أنا ما زلت على العهد. الحارة والزقاق. البيت والمدرسة. الحاكورة والبئر. درب الملاّيات. السور والياسمينة المتعمشقة على حجارته العتيقة. البوابة وحذوة الفرس والخرزة الزرقاء. الخوخة. القنطرة..

"تعال.. تعال..
يا طيورًا طايرة!
يا وحوشًا غابرة!
سلموا لي عَ يوسف العلي
وقولوا له:
تعال شوف مبروكه
كيف صايرة!!"

غير مصدق ما ترى عيناه
لا يعي ما تسمع أذناه.
واقفا مشدوها.
أين؟
يتمتم. يردد.
تخرج الكلمات من شفتيه الناشفتين.
أين؟ أين؟
البيوت. الزقاق. الناس. القنطرة. الخوخة. الياسمينة.
هل لجأوا معنا؟
هل انشقت الأرض وبلعتهم؟

أين آثار خطاي التي شاهدتها في أحلامي الوردية؟
أين الأمل الضاحك؟
ماذا بقي من الوطن؟
أيـن عصـافير الـدوري التـي كانت تفقـز حـولي فـي سـاحة البيت؟
أين ساحة البيت؟
أين البيت؟
ويحدق بعينيه المتعبتين..
ويجد مبروكة.
الشـــاهد الوحيـــد. لا شـــيء سواها!
يعرفها. يسـير إليهـا. يمشـي. يهرول. يقفز.. يعدو.
وأخيرا أعدو إليك يـا مبروكـة. يا عشيرة الطفولة. يا وفيّة. يـا من حافظت على العهد!!
أتـذكرينني؟ أتـذكرين أترابـي وإخـوتي ونحـن نـدور حولـك نـرقص ونغنـي. نلهـو. نرتمـي على جذعك.
محـدقا فـي جـذعها العتيـق باحثًا عن بصمات أصابعه وآثـار قدميـه الصـغيرتين حينمـا كـان يتسلق عليها.
مبروكة التي مات أبـوه وهـو يحكي عنها. لا تنبت مبروكـة إلا في بلاد المسلمين والجنة.
يعانقها.
تخزه أضلاعها الجافة.
ويتـــذكر فاطمـــة. فاطمـــة الحلوة، فاطمـة الزهـراء، بنـت الجيران. كان يكتب لها الرسائل القصـيرة ويدسـها فـي جـذع مبروكـة لتأخـذها حينمـا تـأتي لتملأ جرتها من بئر الماء.
فاطمـة اليانعـة.. الخضـراء.. جفت مثل عود يابس.
فاطمة التي دفنتها الطـائرات فـي مخـيم عـين الحلـوة تحـت أنقاض البيوت الطينية.
باحثا في جـذع مبروكـة عـن فاطمة.
عن ورقة.
هل هي رسـالته الأخيـرة أم جوابها ؟
وفيما هو يبحث تنبـه إلـى أن جذع النخلة مائـل. مائـل كثيـرًا. مبروكة منحنية.
مبروكة مائلة.
وتراجع خطوات.
يا الله.
حتى أنت يا مبروكة!
مـــا الـــذي حنـــى جـــذعك الباسق؟
الحنين؟
الغربة؟
الزمان؟
قولي لي يـا مبروكـة. قـولي لي!!
أود أن أسـمع صـوتك الـذي سمعته في الليالي المعكورة
أنا يوسف العلي.
أنا الفتى الذي كان يقفز حول جذعك الباسق ويتسلق عليك؟
ما الذي حناك؟
هـل انحنيـت لتصـمدي أمـام الريح؟ أم انحنيت لتمشي رائحة الأهل في الأرض؟

"مبروكة يا مبروكة
يا عين أمك وأبوك
لومي مش ع الزمن
لومِي
عَ اللي راحوا وهجروك"!!

آذار 1995

ثلاثة محاور في قراءة قصة "النخلة المائلة"* لمحمد علي طه

بقلم : د. فاروق مواسي

* وردت هذه القصة ضمن مجموعة **النخلة المائلة**، دار الهدى، كفر قرع- 1995 ص5-14.

هـذه القصـة هـي حكايـة الحنـين للـوطن، للماضـي، وللأحبة. فيها المزج الرائع بين الواقع والفانتازيا، وبين الصدمة والحلم، وبين الإنسان والأرض.

يوسف العلي في الستين من عمره يـزور أطـلال بلـده حيث مرتع الطفولة ومـوطن الأهـل، فلا يجد من معالم بلـده سـوى النخلة "مبروكة"، فهي ما زالـت راسخة، يعبر الراوي عن لواعج شوقه وحرقته ومعاناته بسـبب الغربة التي نشأت إثـر التشـريد قبـل خمسـة عقـود. يخاطـب النخلـة فـ "يشخصـنها" أو "يؤنسـنها"، فهـي "عشـيرة الطفولة"، فلا بـد إلا أن يحكـي لها عن كل ما مر به من نكبـات أو ثبات. فها هي الأرض/النخلة رسـخت فـي وجدانـه، حيـث لا ينسى الروائح في الطبيعة، بـل يعرف أسـماء الـتلال والـدروب والشعاب والسبل، ويـراوح بـين الماضـي الجميـل والحاضـر الممـض، ويسـترجع أمامهـا غناءه لها، بل عشقه إياها، فقد ورث هذا العشق عن أبيه الذي مات ولم يفتر عن ذكرها.

ويخيل له أن النخلـة تخاطبـه وتؤكد له حفاظها علـى العهـد، بل إنها ترد على أغنيتـه بأغنيـة، فيختلط الأمر علـى الـراوي، ولا يكاد يصدق.

وفـي خضـم ذكرياتـه تطـل شخصية فاطمـة بنـت الجيـران التـي كـان يكتـب لهـا الرسـائل القصـيرة، ويدسـها فـي جـذع "مبروكة" لتأخذها، ونتعرف من خـلال تداعياتـه علـى مصـير فاطمة التي لاقت مصرعها في مخيم "عين الحلوة".

ها هو يبحث عن أثر لفاطمة فـي جـذع النخلـة، وفيمـا هـو مقبـل علـى ذلـك يتنبّـه إلـى انحناء جذع النخلة – إنـه مائـل كثيرا.

يتساءل عن سـبب انحنائهـا : ألتصـمد أمـام الـريح؟ أم أنهـا انحنت لتشم رائحة الأهـل فـي الأرض؟ ولا يملك إلا أن يمضي في غنائه الحزين:

مبروكة يا مبروكة
يا عين أمك وأبوك
لومي مش ع الزمن
لـومي علـى اللـي راحـوا وهجروك

قراءة القصة:

سأعمد إلى هذه القصة مـن خـلال ثلاثـة محـاور أو أنمـاط قرائية مختلفة، وذلك حتى أطل عليهـا مـن جوانـب مضـمونية وشـكلية تؤلـف كـلا قصصـيا واحدا. وإليك هذه المحاور:

أ.قراءة ما ورائية – نصية:

وهـي القـراءة التـي تجمـع الخلفية التراثية التـي تواشـجت

في القصة، لنرى أن "النخلة" لم تنشأ في ذهن القاص من فراغ أو مجرد اختيار، وإنما هي مرتبطة كرمز في الوجود الفلسطيني، وإلى حد بعيد ومدى واسع.

النخلة – أولا – هي شجرة عشتار المقدسة – إلهة الخصب -، ويقال إن هناك علاقة بين النخيل وتوالي الولادة والاستمرار أو معنى "الفينيق"[1]، بل هناك من يرى أن طائر الفينيق هو طائر النخيل[2]، وتبعا لذلك فقد كانت بلاد فينيقيا / بلاد كنعان وطنا يكثر فيه النخل، مما أكسب النخل مكانة هامة تواصلت جيلا بعد جيل .

أذكر ذلك لأن بداية القصة توحي بذلك. يقول الراوي :"اغتالوني..." قتلوني مرات عديدة، نهضت من بين جثث الموتى..." أليست هذه الأقوال دالة على أسطورة الفينيق أو موحية بثباته أيضا كالنخلة أو الفينيق.

وإذا انتقلنا إلى لقطات أخرى فإننا سنجد "نخلة نجران" التي عبدها بعض العرب، كما سنرى أن المسيح ولد تحت النخلة[3]، فخاطب القرآن مريم :(وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً)[4].

ويرى بعض المفسرين أن الشجرة كانت قديمة العهد منذ أكثر من ألفي سنة "وكانت منحنية"[5] (لاحظ تسمية القصة لدى الكاتب).

والوقوف على النخل ليس مستحدثا في تاريخنا الأدبي، فهذا الشاعر مطيع بن إياس يقف على نخلتي حلوان، ويبكي أحزانه، ويتحدث عن الفرقة التي حالت دون اللقاء بهما، ولا أرى بعدا كبيرا بين معاني القصيدة وكثير من معاني الراوي ومعاناته، يقول الشاعر :

أسعداني يا نخلتي حلوان
وارثيا لي من ريب هذا الزمان
واعلما أن ريبه لم يزل
يفرّق بين الآلاف والجيران
ولعمري لو ذقتما ألم الفرقة
أبكاكما كما أبكاني

---

[1] يقول المؤرخون:" إن فينيكس كلمة تعني في بعض الآراء نوعا من النخيل ينمو على شواطئ فلسطين" أنظر: بيومي مهران: دراسات في الشرق الأدنى القديم، دار المعرفة الجامعية، القاهرة – 1997، ص120.

[2] + "وتضيف أساطير بعلبك ... أن طائرا يسمى فينيق أو النخيل كان يحج إلى هليو بوليس أو بعلبك فيموت ثم يعاود الحياة من جديد" أنظر: شوقي عبد الحليم: موسوعة الفولكلور، مكتبة مدبولي، القاهرة – 1995، ص666.

[3] ورد في الأساطير أن الإله أبولو ولد تحت نخلة، وكذلك ولد نبتون، وهذا يدل على أن الفكرة ليست مستجدة في التاريخ الإنساني

[4] سورة مريم، 25، وقد استخدمت القصة الآية وقد سمعها الراوي من وحي(ص9).

[5] الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف–1985، ص306.

كم رمتني بـه صـروف الليـالي

من فراق الأحبة والخلان[6]

أمـا كاتبنـا أو الـراوي فيقـف على نخلة واحـدة هـي رفيقتـه التي واكبـت طفولتـه وانتظرتـه حتى عودته، وهو يخاطبها مـن خـلال التنفـيس عـن نفسـه، والتعبير عن ألـم الفرقـة الـذي أبكـاه، وعـن صـروف الليـالي، وكيف "أتى عليه ذو أتى".

إن وقفتـه تجعلنـا نستحضـر فـي أذهاننـا كـذلك وقفـة عبـد الـرحمن الـداخل أمـام النخلـة، فقـد رآهـا أمـام قصـره فـي الرصافة، فخاطبها قائلاً :

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

ومع ذلك، فنخلة الداخل كانت هـي المغتربـة "تنـاءت بـأرض الغـرب عـن بلـد النخـل"، بينمـا نخلة محمد علي طه هي نخلـة المكان، نخلة التجذر والبقاء.

وفي القصة الفلسطينية سبق أن قرأنا لنجـاتي صـدقي قصـة "الأخوات الحزينات" التـي كتبهـا فـي يافـا سـنة 1947، حيـث يتحدث فيها عن خمس جميزات يقفـن فـي صـف واحـد، وكـان يقابلهن بناء غربي قديم وذلـك في منطقة بيـارات عربيـة. وإذا بالشـجرات يصـبحن (تصـبح) أسيرات فـي عـالم غريـب عـن العالم الذي نشأن فيه.

يسند الراوي رأسه إلى جـذع شـجرة، ويحلـم أن الخمـس شـجرات أصـبحن خمـس شـخوص أو أخـوات يتـذاكرن جوانـب المأسـاة الفلسـطينية. وتنتهـي القصـة أيضـا بمعنـى الثبات والصمود :"وصحوت مـن غفـوتي، وكـان ريـاح الخريـف تعصف بشدة، فتهز كل شيء"، إلا أنهـا لـم تقـو علـى تلـك الشـجرات، فقـد ظلـت راسـخة كالطور[7].

أما النخلـة فـي القصـة التـي نتناولها فهي باقية علـى العهـد، صابرة، متحدية، ومشاركة وقـد اختـار الكاتـب هـذا النـوع مـن الأشـجار بسـبب صـبرها علـى الظمـأ، وثباتهـا فـي الأرض، وحتى يكـون مبـرر لهـذا البقـاء وتواصل التاريخ وعودته كطـائر الفينيـق. فالنخلـة لهـا معنـى يختلـف عـن معنـى الجمّيـز،

[6] الأصبهاني: **الأغاني**، ج13، ص272.

[7] ياغي، عبد الرحمن: حياة الأدب الفلسطيني الحديث، منشورات المكتب التجاري للطباعة، بيروت – د.ت، ص501.

ووحدتها لها دلالة أعمق من اجتماع عدد من الأشجار معاً. وهي شجرة متفاعلة مع الحدث أكثر من سواها.

وإذا عدنا إلى القصة وتناصاتها فسنجد هناك الغناء الشعبي، كما نجد الآيات الكريمة غير مباشرة أو مستخدمة بتغيير ما في الكلمة لتلائم الموقف، فها هو يخاطب النخلة بجملة "ما ضل صاحبك وما هوى" وهو قول مستقى من الآية (ما ضل صاحبكم وما غوى)[8] – يفعل ذلك ليستخدم لفظ صاحبك – أيتها النخلة – وما هوى سواك ولا أحب إلا أرضك.

أما قول امرئ القيس :"ضيعني أبي صغيرا وحملني دمه كبيرا" يحوره الكاتب إلى :"ضيعني أبي صغيرا، وحمله الهم صغيرا"(ص11). كما أنه ينقل تجربة أيوب، ويتحدث عن الفردوس المفقود "بالمعنى الحرفي للوطن، أو سنة الخروج – ويعني سنة التشريد أو التهجير – بالإضافة إلى الاقتباسات الأخرى المباشرة من القرآن "(والنخل ذات الأكمام)، يا يوسف العلي... كانت النخلة قابلة مريم ومن رطبها تلبى وليدها"[9].

يمثل هذا الحشد الزاخر من الإيحاءات أو المرجعيات منطلقا للقصة، فترتفع النخلة بسموقها القصصي، وهي بالتالي توصلنا إلى لوحة تتجلى فيها النخلة مرسومة، أو يتجلى فيها المتلقي الصابر، أو المهاجر الذي عاد للنخلة الصابرة – سيان. هي لقطة من مصورة يقف القاص فيها مسترجعا مستوحيا مستلهما. وبانيا لعالم من الواقع والخيال معا.

ب- قراءة أسلوبية ـ نصية :

إن الخطاب الأدنى يقدم نفسه من خلال اللغة، واللغة بإشاراتها الخفية والظاهرة ترتبط لدى الكاتب بواقعها الاجتماعي ومؤشراتها البيئية، ولما أن كانت اللغة هي الفاعلة في النص فإننا سنجد أنها تغوص في الأرض وتتداح عليها، ذلك أن المعجم اللغوي الدال على الأرض ومفرداتها وما يستخرج منها ظل المكون الأول والفعلي لحبكة النص.

[8] سورة الذجم : 2.

[9] ص10، أما الآية فقد وردت في سورة الرحمن: 11.

قدمت اللغة في القصة قدرة سردية في استرسال العبارات وتلاحق المعاني، كما فرجت بين تعابير من التراث وأخرى من واقع الحال، واستعانت بلغة غنائية متصلة إلى حد مكين بمشيمة المعنى.

لنلج إلى دوال من ذلك:

يقول الكاتب :"يفتح خوخة للذكريات النائمة في أعماقها... " (ص8). فهو لم يقل مدخلا أو بوابة أو بابا وكلها جائزة له، ولكنه استحضر "خوخة" ليتواصل مع ماضٍ وواقع.

ويقول :"يتنشف بالنور" (ص7)، "ما قعدت يوما ولا عرفت في أثناء زرقة الشمس" (ص6)... إلخ.

ومثل هذه التعابير مستقاة من اللغة الدارجة هي أقرب ما تكون لمحاورة أو على الأقل لملامسة واقعية. فإذا قال "من شفتيه الناشفتين" (ص12) فهو يتعمد الوصف حتى نستوحي صورة التشقق على هاتين الشفتين، وإذا قال "ولكنك رحت" (ص11) فهو يعني الموت وما هو أكثر منه، يعني كذلك الحسرة عليه ويعني الزمن الذي تلا ذلك.

وتورد القصة أسماء لأماكن (البياضة، رباع الست، المراح...) وأسماء لنباتات (ص11) وأخرى لطيور (ص8) وتصب هذه كلها بمعنى التشبث بالوطن، حتى لتدل هي بذاتها على معنى الوطن. إن الراوي خبير كذلك بالروائح في الوطن، وها هو يحبب لنا حتى "هواء المراح" الذي يحمل رائحة الأنعام – البقر والماعز والأغنام- فيحول بذلك حالة القرف إلى حالة التشوق والارتباط، إذ أن قلب العاشق دليله، والراوي يعرف "رائحة هذه الهضبة في سويعات الصباح ويعرف نعومة النسيم فوق ذاك المنحنى"، ولا عجب فالمكان راسخ في وجدانه، وما المكان إلا البيت الذي أشار إليه غاستون باشلار :

"وهكذا فإن الكوني الفسيح يصبح إمكانية لكل الأحلام عن البيوت. الرياح تنبعث من قلبه، والنوارس تطير من نوافذه. إن بيتا يملك هذه الدينامية يتيح للشاعر (للقاص) أن يسكن في الكون أو يفتح نفسه للكون

ليسكن فيه. ولكن في لحظات الطمأنينة يعود إلى قلب هذا المأوى – كل شيء يتنفس من جديد"[10].

أكاد أقول إن الكاتب جند لهذه القصة كل ما تحتضنه طبيعة الأرض الفلسطينية وعاداتها (نحو حذوة الفرس، الخرزة الزرقاء) وبناياتها (نحو الخوخة، القنطرة...)، وهي – على العموم – تضفي هذه الواقعية بشحناتها المؤلمة. فتحديد الطبيعة التكوينية يسوق إلى تبيان يساعد الشخصية المحورية – هذه الشخصية التي قد تكون هنا : أ. الراوي ب. النخلة جـ. المكان بتفاصيله وجزئياته. فكل من هذه الافتراضات له/لها سيادة في إنتاج النص. وتأتي أهمية المكان في كل افتراض كمية وكيفية، ذلك لأن الكم هنا مخفي، فقد كانوا وعاشوا وسعدوا وراحوا وهلكوا. أما على مستوى الكيف فيبدو أن للمكان طاقته الاختيارية في تعميق العلاقة بينه وبين الراوي، وقبل ذلك بينه وبين الوالد عليّ (يلاحظ أن اسم والد الكاتب هو علي، وهذا من شأنه أن يقودنا إلى حالة المطابقة بين الفن والمرئي). فمشاركة المتلقي في إنتاج النص تأتي من توقعه بأن الكاتب قد عاش هذا الواقع حقاً – بصورة ما – أو على الأقل أن له معايشة وجودية ونفسية – هي معايشة الرؤية العميقة الشاملة المتحركة من زمن إلى زمن وصولا إلى زمن.

اللقطة على المستوى الكمي والكيفي تكتسب قوة وإيحاء، فإذا قرأنا قوله "ستون عاما يربضون على كتفيك بما يحملون من الغربة والذل..." (ص9) فإن استخدام لغة الجمع المذكر ليدل بذلك على القوة والتسلط العتو.

أما استخدام الحال في بداية الجملة فقد كان دليلاً على منطلق الراوي الأولي:

- "مستنشقاً" هواء الفجر المضمخ بعبير البرتقال ساعة..." (ص7).
- "محمولاً على بساط من الشوق أعود إليك يا مبروكة" (ص7).

[10] باشلار غاستون: جماليات المكان (ترجمة غالب هلسا) ط3، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1987، ص71.

- "نابشًا بليونة الفجر ذاكرته الغنية" (ص8).
- "قادمًا من ليل الغربة الدامس ممتطيًا جوادًا أصيلاً"... (ص10).

وعلى غرار ذلك كان يقدم (خبر كان) وكأنه نوع من بيان الحال :"محدقا في جذعها كان يتسلق عليها" (ص13) أو يقدم المصدر : قبلاً سأقبلك (ص6)، بل إنه يحذف أحيانا الفعل الذي يجعل الاسم منصوبا نحو :

واقفا مشدوها.

- أين؟ (ص12)

(بدلا من وكان واقفا مشدوها)

أو "باحثًا في جذع مبروكة عن فاطمة" (ص13)

- بدلا من وكان...

وهذه النماذج وغيرها تؤدي إلى التوصيل البدئي. إنه يبدأ بالحالة الأهم – وهي مدار الحديث أو الحدث. وهذا التقديم كان مصاحبا لغنائية لفظية وكأنها ترانيم حزن في مبنى النص.

وما دام الكاتب يسترسل في أداء العبارات ملاحقا المعنى بالمعنى فإنه يخلق نوعا من الدرامية ؛ فإذا سأل "أين؟" (ص12) فإنه يواصل ذلك بتكرارية نعهدها في الشعر الحديث – وبصورة بارزة -، فكل سؤال بلاغي يحمل إثارة، كما يحمل شحنة من استيحاء الماضي. فكانت أسئلة "أين..." تدور حول المادة المحسوسة والمعنى، وهذه كلها تصب في أرض الوطن – في أرض النخلة.

ثم إن الجمل المتصلة المتراسلة تأتي في القصة بغية التوضيح أو إلقاء ضوء آخر معبّر، وذلك على غرار "يعرفها. يسير إليها. يمشي. يهرول. يقفز. يعدو" (ص12) فهذه الأفعال المتعاقبة هي حركية كما ترل على معناها، وبالتالي فهي انفعالية. وعلى نحوها :

"مبروكة تعرفني. تحبني. تنتظرني" (ص9).

"يلهث، يتعب، يقف" (ص8)، ومثلها كثير.

أما التشبيهات فقد كانت تستقى غالبا من جو المكان والبيئة :"ذراعاي مثل جناحي نسر" (ص7)، "فاطمة جفت مثل عود يابس" (ص13)، "نعدو مثل الحملان، ونطير مثل الفراشات الملونة"(ص8)، ففي هذا النموذج الأخير نجد آلية

النقل من حالة الراوي إلى حالة العود اليابس، وهو تشبيه فني وإسقاطي – حسب مفاهيم علم النفس -.

وهذه التشبيهات من واقع الحال نجدها كذلك في قوله :"وبنى سخام التبغ في صدرك مداميك سوداء مثل الغربة" (ص8) فسوداء مثل الغربة هو نقل حاسة إلى أخرى أو تراسلها على صياغة ما اصطلح عليه في البلاغة الحديثة "الحس المتزامن".

وإذا أضفنا إلى لقطات الواقعية سرداً على نحو "وهو يقول... ويقول" أو نقل التساؤل المعبّر "لماذا تضحكون؟" (ص9) فإننا ندرك أن هذه القصة وظفت لغويا بما يعكس المضمون، وشحنت المعنى بواسطة المبنى المعبر والموصل.

جـ. قراءة تأويلية – نصية :

التقديم أو "الفرش" الذي سبق القصة مستقى من "أرض الحقيقة – الفتوحات المكية لابن عربي" حيث أنه يعمد إلى بيان فضائل النخلة إلى درجة كونها أختا لآدم خلقت من فضلة التراب الذي خلق منه فهي لنا "عمة".

كان يمكن أن أقبل هذا النص على المستوى الثقافي المحض، ذلك لأنه ليس موظفا على المستوى الفلسطيني خاصة، بل هو وارد في سياق ديني أو إسلامي قيمي أو صوفي.

فالحديث "أكرموا عماتكم النخل" يشرحه القزويني :"إنما سماها عماتنا لأنها خلقت في فضلة طينة آدم عليه السلام" ومضى يشرح مبلغ التشابه بين الإنسان والنخلة :"... ولو قطع رأسها لهلكت ولها غلاف كالمشيمة التي يكون الجنين فيها... ولو قطع منها غصن لا يرجع بدله كعضو الإنسان، وعليها ليف كالشعر يكون على الإنسان... وإذا قاربت بين ذكران النخل وإناثها فإنه يكثر حملها لأنها تستأنس بالمجاورة"[11].

---

[11] القزويني: عجائب المخلوقات، ج1، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، ص197. وانظر كذلك محمد عبد المعين خان: الأساطير والخرافات عند العرب دار الحداثة بيروت- د.ت، ص19.

فأنسنة النخلة يعيدنا إلى نخلة مـــريم "المنحنيـــة"، وبالتـــالي فالنخلـة هـي رمـز فلسـطيني كنعـاني هـو الفينيـق – رمـز التجدد والانطلاق، ورمز الصبر والثبـات مهمـا تناوحـت الريـاح وكانت هوجاء.

ويجيـز خطـاب الحداثـة أن يحمل العنوان مـا قـد يفتـرض مـن أن المبـدع يتعامـل مـع اللفظـة بقـدر مـن الثقافـة والحساسية، لذا فإن النفاذ إلى أعماق اللفظة وكنهها والتغلغل في احتمالات أبعادها من شأنه أن يتجه بنا إلى الجوهر – هـذا الجـوهر المشـحون بكثيـر مـن المـوروث النفسـي والتـاريخي سواء كان المبـدع علـى وعـي بذلك أم لا.

إن النخلـة المائلـة بكـل مـا تحملـه مـن مصـابرة ومرابطـة تـرتبط بصـبر الـراوي أو لنقـل بصـبر الفلسـطيني المشـرد. فالصبر كان متـردداً – موتيفـاً – لازمـاً، يمثـل تـارة بصـورة مباشرة، وطورا بـالرمز "أيـوب" الـذي ذكـر فـي القصـة فـي سياقين مختلفين :

أمـا الأول فقـد كـان مباشـراً ووصفًا مجردًا، وأما الثاني فقـد ورد على صورة حكاية قصـيرة جدا تقول إنه تقاوى على نفسه حتـى وصـل إلـى البحـر فخـرج معافى. فلا بـدع إذن أن يصـل الراوي إلى مسقط

رأسه، وإلى النخلة حتى يعود أيوب الجديد معافى كذلك.

يتمثل الراوي في أثناء عودته أن الهواء كله له، إنه يشم التربة، يستجلي محاسن الأرض، يعانق النخلة فتخزه أضلاعها الجافة، ولكن لا بأس! (ص13). يربط بين تكرارية علاقته بالنخلة كتكرارية قراءة الفاتحة وما من ملل (ص9) والتساؤل (أين؟) جزء من البحث عن كينونته، فأين طيور الدوري التي كانت تقفز حوله في ساحة البيت؟ ولكن أين ساحة البيت؟ ولكن أين البيت؟ (لاحظ هذا التدريج أو التدرج في المبنى المتناقض).

ثم (أين فاطمة اليانعة الخضراء التي جفت مثل عود يابس؟) وفاطمة مثال لهذا الضياع الفلسطيني المريع.

وتظل القصة تؤكد هذا الحنين الرومانسي حتى في تصميم الراوي الذي كان يستلقي في المنفى وبندقيته إلى جانبه.

النخلة المائلة إذن هي منحنية أمام الصدمات والنكبات، وها هو يتساءل عن سر انحنائها، ويضع لذلك ثلاثة احتمالات كلها تصب في مراح واحد، وكلها تعكس مشاركتها الإنسان في عذابه ووصبه، وكذلك في أشواقه وحنينه.

إن هذه القراءة في المعنى التأويلي هي احتمالية أو افتراضية، وإن صدق الزعم فإن لكل موضوع دال عدداً أكبر من المعاني، وبعضها يتداخل فيما بينه، وبالتالي فإن الكتابة إذا انطلقت مجازية أو استعارية فهي تدل على حشد من الصور وعلى طاقة بنائية خلاقة – وهي خلاف الكتابة الواقعية المجردة التي تنشأ من فراغ أو تؤدي إلى فراغ.

غير أن القصة تفاجئنا في السطر الأخير بهذه الحدّة الموقفية :

"لومي مش ع الزمن
لومي ع اللي راحوا وهجروك"

إن هذا الخطاب حتى ولو ورد في صورة أغنية قد يحتمل معنى أن تتهم – مباشرة وغير مباشرة – مثل هذا الولد المعذب يوسف ومثل أبيه علي الذي ظلت أحلامه تعانق النخلة حتى رمقه الأخير فأغفى وهو يحتضنها، وهو يتلمس كل رائحة من تلك الأرض التي نزح عنها،

وبـالطبع فهـذا الموقـف فـي الأغنية هو آني وعاطفي وعابر.
باقة الغربية

المصدر :

طه، محمد علي : النخلة المائلة، دار الهدى، كفـر قـرع – 1995.

المراجع :

1. القرآن الكريم.
2. الأصبهاني، أبو الفرج : الأغاني ج13، دار الثقافة – د. ت.
3. باشلار، غاستون : جماليات المكان (ترجمـة غالـب هلسـا)، ط3، المؤسسة الجامعية، بيروت – 1987.
4. بيومي، مهران : دراسات في الشرق الأدنى القديم، دار المعرفـة الجامعية، القاهرة – 1997.
5. الثعالبي : ثمـار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعـارف، القاهرة – 1985.
6. خـان، محمـد : الأساطير والخرافات عند العرب، دار الحداثـة، بيروت – د. ت.
7. شوقي، عبـد الحكـيم : موسوعة الفولكلور والأساطير العربيـة، مكتبة مدبولي، القاهرة – 1995.
8. القزوينـي : عجائـب المخلوقـات ج1، دار التحريـر للطباعـة والنشر، القاهرة – د. ت.
9. ياغي، عبد الرحمن : حياة الأدب الفلسطيني الحديث، منشـورات المكتب التجاري للطباعة، بيروت – د. ت.